الباب الخامس

الغريزة الجنسية

إن التوالد من الخصائص الأساسية للكائنات الحية على اختلاف مراتبها ، وهو الوسيلة التى تصل بها الحياة إلى الاستمرار، وتصل بها الأنواع إلى البقاء. ولو درسنا أحوال الكائنات المختلفة لوجدنا أن سائر الوظائف تبدو "ثانوية" بالنسبة لهذه الوظيفة. وحياة الفرد نفسها تتكيف تكيفا يسمح للنوع بالاستمرار. وكثيرا ما تنتهى حياة الفرد بانتهاء أدائه لهذه الوظيفة كما يحدث فى حالة الذكور فى كثير من الحشرات. فكأن الطبيعة تضحّى بالفرد حيث يستفيد النوع من هذه التضحية ، فالذكور فى خلايا النحل تعتبر طفيلية على الخليــة بمجرد أدائها لوظيفة تلقيح الملكة ، فتُطرد بعيدا وتمنع من دخول الخلية ، كما أن الذكر فى "فرس النبى" يصبح طعاما للأنثى بمجرد انتهائه من تلقيحها.

فاذا وصلنا إلى مرتبة الطيور والثدييات نجد أن الاناث تحمل صغارها فى داخلها أو تحتضن بيضها لمدد متفاوتة تطول أو تقصر ، ولا تستطيع الأنثى أن تلد فى حياتها أكثر من عدد معين من الصغار ، تحدده مدة الحمل وطول حياة الفرد وفترة الخصوبة فى عمر كل أنثى ، فاذا أضفنا إلى ذلك طول مدة الحضانة التى يقتضيها نمو كل وليد ، أصبح للذكر أهمية دائمة تختلف عن أهميته الوقتية فى عالم الحشرات. فضلا عن أن قيام الذكر بوظيفة جديدة فى أغلب الأحوال هى وظيفة "الحماية" أو المساعدة فى جلب الطعام للصغار ، يجعل الحياة الاجتماعية عند هذه الحيوانات تتكيف تكيفا جديدا ، ويبدو فيها فى كثير من الأحيان تلازم مؤقت أو دائم بين الذكر والأنثى ، يمكن أن نعتبره أساسا لتكوين "العائلة".

ونجد العائلة عند الانسان تتخذ بالنسبة لظروفه الخاصة صورة تختلف عن صورتها عند سائر الحيوان.

---

(١) وتختلط كلمة جنسية بهذا المعنى فى اللغة العربية بكلمة Sexual ، Racial وربما كان حل هذا الخلاف أن تترجم الثانية منهما «عنصرية»

والعائلة فى الانسان عامة توجد فى جميع المستويات ، ومختلف الحضارات ، والصورة الغالبة هى الصورة المألوفة لنا والشذوذ فيها نادر .

والعائلة السائدة مكونة من ذكر وأنثى وأبنائهما . والعائلة عند الانسان وحدة اجتماعية " جنسية " وهى تؤدى هاتين الوظيفتين معا ، عن طريق الاتصال الخارجى والداخلى ، والعائلة هى المؤسسة التى يحدث عن طريقها استمرار النوع فلا غرابة إذا كانت مختلف الجماعات قد عملت على حفظ كيان العائلة بمختلف الأساليب .

ولو نظرنا الى الغريزة الجنسية عند الانسان لوجدنا أنها فى مركز يلفت النظر حقا .

فهى لا تمارس كما تمارس عند الحيوانات ، أو كما تمارس أغلب أنواع النشاط الأخرى عند الانسان — أو بتعبير آخر "غرائزه" الأخرى — ، بل انها تخضع لألوان من الخفاء والتخبئه . فأعضاء التناسل نفسها تُخفى عن الأعين وتعتبر سوءات وعورات . وشعور الناس نحوها فى الأغلب شعور بالعار والاشمئزاز ، لاتُذكر أسماؤها إلاهمسا وفى خفاء . أما التناسل نفسه فقد وضع القانون والتقاليد والعرف له نظما تجعل ممارسته أمرا لا يتأتى الا طبقا لشروط خاصة ، وفى ظروف خاصة ، فإذا خرج الفرد على هذه النظم فإما أن يناله القانون ، واما أن ينبذه المجتمع .

ولو بحثنا القوانين والتقاليد فى مختلف البيئات من بدائية ومتحضرة ، فإننا نجد أنه تبرز فيها ناحيتان . الأولى : حماية المجتمع من شرور الدافع الجنسى ، والثانية : حمايته من اخطار الاعتداء . ولم يكن وضع هذه القوانين والتقاليد عبثا ، بل إن وجودها ليُبرهن على أن المجتمع ينظر الى هاتين النزعتين " الجنسية والاعتدائية " على أنهما نزعتان قويتان جدا ، يحتاج الأمر للتخلص من أخطارهما الى جهد جهيد . فأما النزعة الأخيرة (فقد حرمها بوجه عام (وان كان قد أبقاها كحق من حقوق "الحاكم" ، ولكنه لم يستطع تحريم الأولى فنظمها وسن القوانين والشرائع التى تحدد المحظور والمباح فيها .

والإنسان يختلف اختلافا أساسيا عن الحيوانات الأخرى ، فهو بما وصل إليه من ذكاء وقدرة على التذكر والتخيل وغير ذلك ، قد دخل فى حياته النفسية عامل جديد

من الوجهة البيولوجية، وأكسبه هذا العامل كفاءة وقدرة من نوع جديد بالنسبة للرتب الحيوانية الأخرى، ثم إن طبيعة حياته الاجتماعيــة قد أدخلت عاملا آخر عظيم الخطورة في حياته النفسية . وهذان العاملان يتركزان فيما يمكن أن نسميه " غرائز المحافظة على النفس (١) " فهذه الغرائز التي ترمى الى المحافظة على كيان " الفرد " انما تستخدم ذكاء الإنسان وقدرته العقليــة لكي يطابق بين سلوكه وبين المقتضيات التي تحتمها معيشته الاجتماعية . فهـذه الغرائز ترمى في مجموعها الى صيانة الفرد . وتبقى الغريزة الجنسية ووظيفتها الأساسية حفظ " النوع " والفرد لا يدخل في حسابها الا باعتباره ناقلا للنوع، وهو كما رأينا في عالم الحيوان كثيرا ما يعتبر عالة على النوع فيُعدم أو يُترك ليفنى بعد أن يؤدى الوظيفة المطلوبة منه . فالغريزة الجنسية تعتبر من الوجهة البيولوجية غريزة " لافردية " بل كثيرا ما تكون ضد الفرد . ومقتضياتها لا تمشى مع مقتضيات الذاتية الفردية دائما، وهى تصطدم معها اصطداما في حالة الإنسان خصوصا بالنسبة لمـا ذكرناه من خصائصه الاجتماعية والعقلية ، وهذا الاصطدام لامناص منه ، وهو يؤدى إلى نتيجتين : الأولى أن تتخذ الغريزة وسائل وطرقا لا تتنافى في ظواهرها مع المقتضيات العقلية والاجتماعية ، أى أنها تمشى مع مقتضيات " غرائز المحافظة على النفس " لكى تستطيع أن تؤدى وظيفتها في النهاية وهى الوظيفة التي ترمى الى حفظ النوع ، والثانية انها اذ تخضع لظروف المجتمع انمـا تعطى الإنسان فرصة للمزيد من الرقى العقلى والاجتماعى، لأن اعتبارها "عقبة" يقلل من الوجهة العملية . ومعنى هـذا باللغة الواقعية ، أن المجتمع يضع النظم والقوانين والتقاليد والعادات التي تحدد ممـارسة هذه الغريزة بحيث لا تتضارب مع كيانه ثم إذ يطمئن من هـذه الناحية ينصرف إلى ترقية مستواه وإلى بلوغ غايات معنوية وثقافية أعلى . بل إن هناك ماهو أهم من ذلك، لأن هذه النظم والتقاليد ... الخ إنمـا تحد من نشاط الغريزة الجنسية فتجعل من الممكن أن يستخدم ما زاد عن الحاجة من هذا النشاط نفسه في بلوغ الغايات الاجتماعية ، بل وتصبح دافعا للانسان الى المزيد منها .

غير أن هذا الاصطدام نفسه كثيرا ما يضع الفرد أو المجتمع في موضع لا يُحتمل . ذلك أن قبول الغريزة للضغط، وتمشيها مع المقتضيات الاجتماعية، له حدود لا يمكن

(١) Self-Preservative Instinct أنظر :

Freud : Introductory Lectures on Psycho—Analysis 1940, p.298

تجاوزها الا على حساب الكيان العقلى للفرد أو للمجتمع ، ولذلك تظهر على بعض الأفراد آثار الاضطراب العصبي نتيجة لفشلهم فى حل هـذه المشكلة ، كما تبدو مثل هذه الآثار على مجتمعات بأسرها فتؤدى إلى الثورات والحروب وغيرها من مظاهر " الاضطراب العقلى الجمعى " .

ومما يزيد فى تعقيد المشكلة أن الغريزة تبدأ فى الظهور قبل أن يستوفى الفرد نصيبه من الذكاء ومن تفهم النظم الاجتماعية ، فظهور الغريزة الجنسية فى الطفولة بكامل قوتها يجعلها تصطدم بالمجتمع الخارجى اصطداما مباشرا ، ولا تكون ظروف هذا الاصطدام تحت رقابة متنورة من العقل ولذلك فإنها تؤدى غالبا إلى نتائج متطرفة من الإشباع أو القمع ، ويؤدى ذلك الى حل العقدة فى الظاهر ولكنه يضع أساس الاضطراب العصبي المستقبل للفرد .

وهذه الصلة بين الاضطراب العصبي وبين الغريزة الجنسيـة هى التى كشفت الطريق لفرويد ليكوّن نظرياته فى التحليل النفسى . ويقال إن الذى لفت نظر فرويد الى هـذه الحقيقة هو أستاذه " شاركوه " الذى قال فى حالة مريضـة بالهستريا : " فى هذه الحالات ، الجنس دائما هو السبب الرئيسى ، دائما ، دائماً ، دائما " . وقد وجد فرويد فى الحالات التى فحصها أنه دائما كان هناك عنصر ينتسب إلى الدافع الجنسى . ولكن سرعان ما حملته مشاهداته الى محيط آخر . فقـد وجد أن للأعراض المرضيـة صلة بعهد الطفولة . ومالبث أن بهره ذلك التشابه العجيب بين أعراض المرض العصبي و بين حياة الطفولة ، ومالبث أن وضع يده على كشف من أهم كشوف التحليل النفسى وهو " الجنسية الطفلية (١) " .

فقد وجد أن الأعراض الراهنة للمرض إما جنسية صريحة أو مضمرة ، ولكنه إذ تتبعها إلى الطفولة وجد أنها تكشف عن نوع من الجنسية عند الأطفال . لا يمكن أن يخطئه المدقق المحايد فى نظرته .

فهذا " التعلق " الشديد من ناحية الطفل بأبويه وغيرهم ، وما يتناوب الطفل من نوبات الغيرة والغضب والرغبة فى الاستئثار بمن يحب ، وجريه وراء اللذة

---

(١) Infantile Sexuality

وحرارة العاطفة التى تبدو فى معاملاته ، كل هذه ظواهر تفصح عن طبيعة متدفقة جياشة لايشبهها إلا أشد حالات العشق والشبق عند البالغين. وللغريزة عند الأطفال صورة غير تلك التى تراها عند الكبار [1] . ولكن التشابه بينهما تشابه أساسى هو الذى جعل فرويد يصرُّ على أنهما ترجعان الى أصل واحد .

فللغريزة صُوَرها " الطفلية " وهذه الصور نفسها تلاقى من القمع والمقاومة ماتلاقيه نظيرتها عند الكبار بل أكثر، ونتيجة القمع فى حالة الأطفال أوكد، ولذا كان أثره أعمق وأبعد .

فإذا رجعنا إلى التكوين العائلى الذى ينشأ فيه الطفل نجد أن التيارات المختلفة التى تتجاذبه متعددة مختلفة الاتجاه، بل متناقضه. ففى محيطها تجد غرائز الاشباع والقمع متجاورين متلازمين ، وفيها تجد الاقتراب والابتعاد، المحبة والكراهية، الألفة والغيرة . والأسرة هى التى تنقل إليه التقاليد والعرف الاجتماعيين . وفى هذه الفترة من حياته يمر فى ظروف لن يكون لها نظير فى حياته المستقبلة . فهو يصطدم لأول مرة بالحدود والموانع والأوامر والنواهى ، كل ذلك وهو خالى الذهن مما وراءها من حكمة ، لاتملكه الا رغباته وشهواته ، فلا تلبث هذه أن تصطدم بتلك، ولايلبث أن يشعر بحرارة الاصطدام، فيثور و يغضب و يدافع و يهاجم ، ولكنه لايلبث أن يدرك أنه يحارب فى معركة لم تتكافأ فيها القوى ، فينتهى به الأمر الى التسليم. وهو إذ يسلم إنما يسلم هذه الرغبات والشهوات نفسها فتختفى ، وتخلى الطريق لغيرها مما يتناسب مع المجتمع .

وعهد الطفولة الأولى زاخر بالحوادث النفسية. والجديد الذى أضافته مدرسة التحليل النفسى إلى معلوماتنا هو أن هذه الحوادث تعتبر جنسية، وذلك هو الذى دعا إلى قمعها واستبعادها من الشعور. ونسيانها نسيانا تاما، بل إن النسيان لايقتصر على الحوادث نفسها بل على كل ما يحتمل أن يذكّر الانسان بها ، ولذا كانت

---

(١) أنظر ص ٧٧ ومابعدها .

هذه الفترة من حياتنا فترة تكاد تكون منسية نسيانا تاما لا يبرره مجرد مضى الزمن ، لأننا نذكر من الحوادث ما مرت عليه عشرات السنين ، ولكن الطفل ذا الثمانى السنوات لا يكاد يذكر من ماضيه الذى مر عليه سنتان شيئا . فى الطفولة الأولى إذن توضع أسس اللاشعور لأنه فى الطفولة الأولى يظهر نوع من الجنسية الثائرة المتدفقة .

وهكذا نرى كيف جمعت مدرسة التحليل النفسى بين اللاشعور والجنسية الطفلية وحياة الطفولة .